مصطفى طيبة

«وجاء يوم كنت فيه أنا المتهم سجينا، والمحامى الذى دافع عنى سجينا، والقاضى الذى حاكمنى سجينا هو أيضا».
مصطفى طيبة

الأب يجاهد بحثا عن خبز لسبعة أبناء وزوجتين. والفقر حاجز أمام طموح التعليم، وممكنات الأب تقف به عند حدود الشهادة الابتدائية، أما ما بعد هذا فهو رفاهية لا يقدر عليها، لكن الفتى مصطفى يلح.. ويتنازل الأب فيدخله مدرسة الصنائع. وبعد الدبلوم يعين مصطفى فى وظيفة إدارية فى وزارة الحربية. لكنه يتطلع إلى المزيد فيلتحق بدراسة مسائية بمدرسة الفنون التطبيقية.

وكعادة شباب هذه الأيام كان قلقا وراغبا فى خدمة الوطن عبر أى سبيل فتنقل من الوفد إلى مصر الفتاة إلى الإخوان. وبالمصادفة وقعت فى يده عدة كتب لسلامة موسى وأعداد من «المجلة الجديدة» والتهب ضوء باهر فى أعماق «مصطفى أفندى» واصل القراءة وواصل التجوال على الأندية الثقافية التى تكاثرت فى هذه الأيام.. تنقل بين ندوات «جماعة نشر الثقافة الحديثة» حيث استمع إلى محاضرات لمصطفى كامل منيب وسعيد خيال وإبراهيم سعد الدين. و«دار الأبحاث العلمية» حيث أنصت إلى شهدى عطية وعبد المعبود الجبيلى وعبد الرحمن الناصر ولطيفة الزيات و«نادى أم درمان» حيث يرتل محمد خليل قاسم وزكى مراد أشعارهما وحيث يخطب عبده دهب منددا بالشعار السائد «نيل واحد، شعب واحد، ملك واحد» ويرفع عاليا الشعار البديل «الكفاح المشترك ضد العدو المشترك».. وتلتقطه من هناك عيون يقظة تقوده إلى «الحركة المصرية للتحرر الوطنى»، ويتلقى توجيها من مسئوله بالعمل النشط وسط خريجى الفنون التطبيقية فهناك حركة نشطة تطالب بأن يمنحوا لقب مساعد مهندس ثم لقب مهندس بعد فترة، وبزيادة الرواتب. وعبر نشاط جارف قام به هو ومجموعة حزبية منها يوسف بدير محمد على وبمسئولية سيد سليمان رفاعى، أمكن تأسيس «رابطة خريجى الفنون التطبيقية»، ويقود مصطفى

إضرابا ناجحا واعتصامات عديدة فى مقر الرابطة، وتخضع الحكومة ويصبح مساعد مهندس. لكن هذا النجاح لا يمر بلا اهتمام من القيادة. فقد تم تصعيده إلى لجنة القاهرة، ثم دعاه هنرى كورييل ليحضر اجتماعا للجنة المركزية يقدم فيه تقريرا عن خبرات تأسيس الرابطة وتنظيم الإضراب والاعتصام، كان قلبه يدق فهو فى حضرة القادة وكان القادة ينصتون فى انبهار وبعدها أصبح مسئولا عن لجنة المعز (القاهرة) وانغمس حتى أذنيه فى النضال الثورى. وفى ١٩٤٨ كان قد أصبح كادراً أساسياً فى منظمة «حدتو». ثم بدأت المشكلات. حرب فلسطين - حملة الاعتقالات - الانقسامات، وفى هذه الأثناء تم تصعيده إلى اللجنة المركزية، وفى هذا المناخ المليء بالانقسامات والتربص بكل قول، والانفعال المرتدى ثيابا ثورية أعد الرفيق شكرى (مصطفى طيبة) تقريراً نادى فيه بضرورة أن ينفتح الحزب ليس فقط على العمال والفلاحين والطلاب والفقراء، وإنما أن يفتح ذراعيه للمهنيين وكل القوى الوطنية والديمقراطية فى المجتمع. وأطلق على هذا التقرير اسم هو «خط القوات الوطنية والديمقراطية» ونستمع إلى الرفيق شكرى. «هذا التقرير نسخ منه عدد محدود ووزع بالكاد على المتبقين من عضوية اللجنة المركزية. لكن المناخ كان معصوب العينين، والعقل كان متجها نحو الخصومة، وجرى تهييج للكادر ضد التقرير. وفجأة أصبحت عدواً لغالبية من كادر تحركه نزعات برجوازية صغيرة تحركها شعارات متطرفة ومتشددة، والمثير للدهشة أن الذين أدانوا التقرير لم يقرأوه، ولكنهم فقط سمعوا عنه من خصوم للفكرة، وفى مواجهة التقرير نشأت الدعوة لنقاء الحزب البروليتارى من أى وجود غير عمالى ورفع شعار: ١٠٠٪ عمال (منظمة م.ش.م)، والبعض تواضع فرفع شعار ٧٥٪ عمال (منظمة العمالية الثورية) ومن المعتقل يتلقى رسالة من هنرى كورييل تطلب إليه أن يترك وظيفته ويحترف فى العمل الحزبى. لكن ما يراه من صخب غير عاقل وخلافات غير مبررة وانقسامات لا تعرف العقل ولا التروى كل ذلك جعله يرفض أن يضع مصيره فى أيدى هؤلاء. ويغضب رفاقه فى المعتقل ويقررون تنزيله من عضوية اللجنة المركزية، ويجد الرفيق شكرى نفسه بين فكى كسارة بندق، فالذين رفضوا تقريره اتهموه بالخيانة، والذين قبلوه اتهموه بالضعف. وانعزل شكرى مع مجموعة صغيرة تمتلك كنزا حقيقيا هو «مطبعة»، وأسميت المجموعة «مجموعة المطبعة».

ويعود إلى مصر، من فرنسا، فى هذه الأثناء، شاب حصل على الدكتوراه وأصبح مدرسا بالجامعة هو د. فؤاد مرسى. قابله شكرى وطلب د. فؤاد منه أن يضمه إلى «حدتو» لكن شكرى قال له: أنا شخصيا تركت حدتو. وجلس الدكتور مع مجموعة المطبعة. مصطفى

طيبة – سعد زهران – داود عزيز – لمعى يوسف – طوسون كيرلس. وانبهر الجميع بحماس وقدرات الوافد الجديد. وأعد فؤاد مرسى تقريرين هامين انبهر بهما كل من قرأهما «الصراع الطبقى فى مصر» و«ثورتنا المقبلة». ويمضى شكرى قائلا: «تصورت، وكذلك تصور الدكتور فؤاد، أن كل ماركسى سيقرأ هذين التقريرين سوف ينضم إلينا حتما. وكان ذلك صحيحا إلى حد ما. وفى أول يناير ١٩٥٠ أعلنا قيام الحزب الشيوعى المصرى، وأصبح فؤاد مرسى سكرتيرا عاما وأنا مسئولا للتنظيم وداود عزيز مسئولا للدعاية، وسعد زهران معنا فى القيادة الرباعية، ونجحنا فى إصدار مطبوعات أنيقة جداً ومنتظمه تماما فمجلة (راية الشعب) كانت تصدر كل خميس وبانتظام مثير للدهشة»، ويقبض على الرفيق شكرى ومعه مصطفى كمال خليل ومعهما المطبعة، فى ١٨ يوليو ١٩٥٢، وبعدها بأيام تأتى ثورة يوليو. ومن ثم محاكمة عسكرية أمام مجلس عسكرى عال يترأسه قائمقام أحمد شوقى عبد الرحمن، وترافع عنه المحامى الوفدى الشهير محمود سليمان غنام باشا الذى هاجم الحكم العسكرى هجوما عنيفا وبعد شهرين أوقفت المحاكمة فقد قبض على القاضى بتهمة تدبير انقلاب عسكرى جديد وقبض على المحامى بتهمة العداء للثورة وأتى قاض جديد، هو اللواء فؤاد الدجوى، ليحكم عليه بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة.. ويبقى مصطفى طيبة مسجونا حتى بعد أن ينهى فترة العقوبة ولا يفرج عنه إلا فى أبريل ١٩٦٤ مع باقى المسجونين، ويعمل مصطفى طيبة بقرار من خالد محيى الدين صحفيا فى دار «أخبار اليوم» عندما كان رئيسا لمجلس إدارتها، ويكتب الرفيق شكرى ما يشبه المذكرات فى جزأين «رسائل سجين سياسى إلى حبيبته»، وفى الحوار الممتد معه لساعات وأيام (مايو – يونيو ١٩٦٨) حكى آلاما كثيرة ورجانى ألا أدونها: ظلم الرفاق له – أبوه الذى قضى أيامه الأخيرة فى ملجأ العجزة حيث أفقر الفقراء، أخته التى ظلت مصابة بانهيار عصبى منذ القبض عليه وحتى نهاية الحياة. زوجته الإيطالية التى ما إن علمت بالقبض عليه حتى أجهضت ابنه وطلقته. وتبدت دموعه وهو يقول: لو كان ابنى حيا لكان قد أصبح شابا». وقال: «كنت متماسكا رافعا هامتى أمام خصومى الطبقيين لأكون قدوة لزملائى، لكننى كنت أتمزق لإحساسى أننى عذبت أبى وأختى».

وتمضى الأيام ليرحل الرفيق شكرى حاملا أحزانه فى صدره الذى كان باتساع حلم الوطن بأسره.